ثالثاً: الطائفة المنصورة.. من توالي، ومن تعادي؟

لن نتردد في أن نقرر لإخواننا المجاهدين في فلسطين وما حولها، أننا وإياهم؛ لن ننال ولاية الله، ولن نستحق نصرته إلا بعد أن نعرف من نوالي ومن نعادي، ثم نجعل من هذا الولاء وذاك البراء ميثاقاً نحفظ به إيماننا أمام ربنا، فالولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين عهد الإيمان، ورباط الإسلام، وعروة الإيمان الوثقىٰ، بل هو أوثق عراه علىٰ الإطلاق، قال رسول الله ﷺ: «أوثق عرىٰ الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»(١)، فالإيمان الذي تعهد الله ـ تعالىٰ ـ بنصرة أهله في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، لا يتحقق علىٰ الوجه المقبول إلا بأن نعادي أعداء الله، ونوالي أولياء الله، بل لن نستحق نحن أن نكون من أولياء الله حتىٰ نقيم هذه العقيدة في قلوبنا، ونعيشها في واقعنا، قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالىٰ في الله وعادىٰ في الله؛ فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان ـ وإن كثرت صلاته وصومه ـ حتىٰ يكون كذلك»(٢).

---

(١) أخرجه: الطبراني في المعجم الكبير، رقم (١١٥٣٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٧٢٨).

(٢) أخرجه: ابن المبارك في الزهد، رقم (٣٥٣)، وإسناده ضعيف.

وقد ضُرب لنا المثل في ذلك بفعل خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام؛ حيث قال ـ تعالىٰ ـ في شأنه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فإذا آمنوا بالله وحده؛ فعند ذاك تبذل لهم المحبة ويقدم لهم الولاء. فجعل شرط زوال العداوة عنهم أن يؤمنوا بالله وحده.

إن أمر الولاء والبراء من معاقد الإيمان، فهو شأن قلبي ولكنه لا يصح بدون عمل، بل يصح بتطبيقه في واقع التعامل مع الناس، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ والذين معه قالوا لمن يستحقون العداوة من أقوامهم: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فقد أبدوا وأظهروا هذه العداوة، وأداموها بشرطها الظاهر أيضاً؛ وهو عدم ظهور التزام قومهم بالإيمان بالله وحده قولاً وفعلاً.

ومع هذا نقول: إن للدعوة مقاماً غير مقام إزهاق الباطل، فقد لا تُظهر مثل تلك المشاعر أثناء الدعوة، بل يحل محلها التأليف والتلطف والموعظة الحسنة، ولكن ذلك لا ينافي نزع الشرعية الزائفة عن الباطل المعلن، بالوضوح نفسه في إظهار الحق المجرد، فجمع القلوب وتوحيد الصفوف وحشد الأنصار، لا ينبغي أن يكون إلا تحت راية حق واضح؛ فلا مكان إذن لولاء قومي أو محبة وطنية، أو انتماء لأرض أو لون أو عرق أو جنس إلا إذا كان ذلك ضمن المحبة لله وفي دين الله، وهذه أمور

قد تبدو بدهية يعرفها كل الناس؛ وبخاصة أبناء الحركة الإسلامية، ولكن نقول ينبغي تبنيها قولاً وفعلاً: فشتان بين المعرفة النظرية والتطبيق العملي، فالتطبيق العملي في هذه الأمور أمر ليس بالهيّن، فقد كان هو معركة الأنبياء الصعبة مع أقوامهم.

أيها الأحبة:

لا بد لأي حركة مجاهدة تستنزل نصر الله، وتستمطر رحمته؛ أن تبني علائقها على قاعدة الولاء والبراء، أو المحبة في الله والبغض في الله، والحد الأدنى في ذلك حال القلب؛ حيث لا محبة لمبتدع غالٍ في بدعته، ولا توقير لمنافق تتفلت الزندقة من لسانه، ولا كافر مستعلن بأي ملة كفرية، فحال القلب في ذلك لا يمكن التساهل فيه من عبد يرجو الله واليوم الآخر.

وقد توجد أحوال تحتاج إلى تفصيل، لنترك شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يفصل لنا أحكام ذلك، حيث يقول: «على المؤمن أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن، فعليه أن يواليه وإن ظلمه؛ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [**الحجرات**: ٩]، فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأمر بالإصلاح بينهم، فليتدبر المؤمن: أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك، فإن الله ـ سبحانه ـ بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين

كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام والثواب لأوليائه، والإهانة والعقاب لأعدائه، وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر؛ فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة»(١).

فنحن قد نكون أمام أحوال مختلطة، تحتاج إلى التفصيل السابق، ولكن هناك أحوال ثابتة وواضحة، لا يصلح معها التهاون في أمر الولاء والبراء إلا إذا هانت علينا أنفسنا فأهنَّاها بالحرمان من ولاية الله. فالكفار بوجه عام أعداء لنا، وواجب علينا أن نكون أعداءً لهم، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]، وكفار أهل الكتاب من ضمن هؤلاء، سواء كانوا يهوداً أم نصارى، فهم ينقمون علينا ديننا، ويكرهون أي خير لنا، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

ويدخل فيمن تجب مفاصلتهم والبراءة منهم: المنافقون والموالون للكفار علناً والمعادون للمؤمنين ليلاً ونهاراً، والكارهون لشرع الله ودينه

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، (٢٨ / ٢٠٨، ٢٠٩).

سراً وجهاراً، فأمثال هؤلاء قال الله ـ تعالىٰ ـ فيهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، فهؤلاء ينبغي أن يكون شأن المجاهدين الصادقين تجاههم كشأن الصادق المصدوق معهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ إذ أمره الله فكان خير الممتثلين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

إن لنا ولاءً عاماً للمسلمين، كلاً بحسبه، وولاءً خاصاً لأصحاب الفرقة الناجية وهم أهل السنة إجمالاً، بجميع جماعاتهم وفصائلهم، وولاءً أخص للعلماء العاملين والمجاهدين منهم، الذين يمثلون الطائفة المنصورة في كل زمان، ونحن نعُدُّكم أنتم ـ أيها المجاهدون ـ طليعةً لتجمع تلك الطائفة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس؛ وذلك عندما تستجمعون صفتي: (علىٰ الحق ظاهرين) و (يقاتلون علىٰ الحق)؛ فهما وصفان لأجلهما عُدت الطائفة التي تجمعهما خلاصة هذه الأمة؛ وبهما تسنمت ذروة سنام الإسلام علماً وعملاً. ونحن حينما نقول بتفضيل العاملين المجاهدين علىٰ سائر الأمة؛ نستقي ذلك من وصف الرسول ﷺ لهم بأنهم (علىٰ الحق ظاهرين)، وقبل ذلك بتفضيل الله ـ تعالىٰ ـ للمجاهدين علىٰ القاعدين في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].